الطب عند الشيخ الرئيس
بين ديالكتيك التشريح والإسقاطات الإيطيقية المعاصرة

مداسي مريم وفاء[1]

تقديم:

يذكر ابن باجه وهو طبيب وفيلسوف من الأندلس بأنه داخل مدينته التي ينظر لها في كتابه المتوحد لا يوجد لا قاضي ولا طبيب، ونفس الأمر نجده في المثل الأفلاطونية وفي فلسفة الفارابي، رفض القضاء، لأنه في المدينة الفاضلة توجد العدالة، ورفض الأطباء هذا ليس إنكارا للطب، بل بغية وجود إنسان كامل ومعقم لا تتسرب إليه الأمراض لذلك يقاس تقدم وتخلف الأمم بمدى استفحال الأمراض والفساد، فيعتبر الطب هو من المعرفة الإنسانية، وركناً من أركان الحياة الفاضلة خصوصا في زمن تطورات وتحولات المعاصرة فالسؤال اليومي الفلسفي هو كيف يعيش الإنسان في مأمن من رزقه وبدنه وفقط دون مطالب أخرى، فأعطي ميشال فوكو الطبيب كل السلطة لأننا نسلم له أجسادنا بكل أمانة، ومرجعيات العلوم الطبية الغربية تشهد لتاريخ العلوم أن لفلاسفة الإسلام نصيب فيها بحيث تعتبر جل محاولات الأطباء المسلمين ومساهماتهم الفاعلة في مجال العلوم التطبيقية مهمة، بقدر محاولاتهم في حل الكثير من المشاكل الصحية التي كانت تعتري المرضى في ذلك الوقت، لذلك كان مسعاهم الوحيد هو تحسيناً في حياة الأفراد، وذلك يكون من خلال البحث المتواصل عن حلول ناجحة وفعالة تحوي حياتهم الصحية، ومن بين ذلك الزخم الكبير في المجال الطبي نجد الشيخ الرئيس له إسهامات عديدة في المجال الطبي وأيضا له دراسات واسعة في جميع نواحي جسم الإنسان وتعود أيضا أسبقية العديد من النظريات إليه، فما هي تطبيقات الطب عن

[1] باحثة في الفلسفة جامعة سعيدة عضو (ة) مخبر تطوير سعيدة . الجزائر

الشيخ الرئيس ؟ وكيف يمكن النظر إلي تجلياتها عند الغرب في زمانه و في الأخلاق التطبيقية المعاصرة .

مرجعيات الطب عند المسلمين:

التدوال الإسلامي للطب الذي تجسد في مختلف أعمال فلاسفة الإسلام نعالجه من زاويتين: المستوى الأول معرفي فكري، أما المستوى الثاني فمن الناحية الدينية.

المستوى الأول : معرفي فكري

يعتبر الطب الإسلامي حلقة الوصل الذي ترجمت فيه العديد من أعمال سابقيه، في الحضارات التي سبقتهم وأغلبها اليونانية التي تألقت وبرزت في هذا المجال مثل أعمال ابقراط وجالينوس ....وغيرهم من الأطباء اليونان الذين برزوا في هذا المجال، وقد كان اهتمام الفلاسفة الإسلام بهذا المجال مقتدين بالطب عند المصريين حيث كان اختلاطهم بالفرس والروم كبيرا جدا فأخذوا عنهم الطب، وأقدمهم هو لقمان الحكيم ثم جاء بعده ابن النديم وغيرهم من العرب اللذين برزوا وتعتبر إسهاماتهم بمثابة، الخطوة الكبيرة التي من خلالها ساروا في طريق العلم، وكانوا يعتمدون على الأعشاب لدرجة كبيرة والعقاقير خاصة آخذوا بعض وصفاتها من المصريين ([2]) وكانوا في بعض الأحيان يمزجون بين الحكمة الطبية ومختلف معتقداتهم الأسطورية والميتافيزيقية بحيث يجعلون الداء عقاباً إلهياً .

والطب في الإسلام ارتبط بتعاليم الدين الجديد بحيث ان أول مقاصده الحفاظ على النفس، فكان المسلمون يأكلون بمقدار ويشربون بمقدار دون ما إفراط أو تفريط، وقبلهم أشار الحكيم اليوناني أبقراط المشهور بقسمه بأن الغذاء السليم وإتباع الحمية هي أول خطوات تجاوز كل أنواع السقم والمرض ونصح أيضا بأكل المنتوج الفلاحى في فصله، وهنا يمكن أن نحدث مقاربة إيطيقية بين ما ذهب إليه

[2] محمد الصادق عفيفي،تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي، القاهرة ،1977 ،ص173.

ابقراط وبين ما يدخل في تطور المنتوج، حيث طبيعة الغذاء وجودته أصبحت من بين المسائل الإيطيقية المطروحة في الراهن .

وكما ذكرنا في بدء الكلام فالطب والحفاظ على الجسد في الإسلام هو إيمان، فبدايته كانت عقيدة وأنتهي بالفكر، وتدعم بحركة الترجمة حيث نقلت كل مؤلفات اليونان إلي العربية واستفاد منها إبن سيناء وإبن رشد وابن الهيثم وجابر بن حيان ... وغيرهم، لأن فكرهم كان موسوعياً، إذ فلسفة العلوم عندهم تجعل المعارف في مراتب منها الطب والفلسفة والإلهيات والطبيعيات، واختص كل فيلسوف بمجال في الطب لكن إذا كانت العوائق الإبستمولوجية في الإيطيقا المعاصرة تمس بالأخلاق وكرامة الإنسان مما جعل العلماء يهتمون بالإستنساخ وتأجير الأرحام والتعديل الجيني وغيرها من المسائل المعاصرة

فإن فلاسفة الإسلام واجهتهم عقبات خصوصا موقف الدين من التشريح وقدسية الجسد، فكانت أغلبية أعمالهم خفية ولم يسلموا من التنازع الديني والكلامي فأغلب أعمالهم استفاد منها الغرب ولم ينكروا هذا .إلا أن البعض منهم يعتبر أن إسهامات المسلمين كانت مجرد ترجمة حرفية يونانية وهذا يدخل في إطار موقف النزعة المركزية الأوروبية، إذ كل فكر وحضارة ومعرفة هي من نصيب الغرب ورثة اليونان ودائما يقزمون الشعوب الأخرى، وقد استفاد الغرب من معارف المسلمين في العصر الوسيط وهذا راجع إلي أن العصر الوسيط هو عصر الأنوار والعصر الذهبي عند الفلاسفة الإسلام، بينما هو عصر دوغمائية وظلمات وتخلف وإقطاع عند الغرب، وهذا راجع إلي التيولوجيا والتفويض الإلهي الشائع عندهم، بينما نحن نجد تصريحاً لأبي بكر الرازي في كتابه الحاوي «... و لقد جمعت في كتابي هذا جملا و عيوننا من صناعة الطب مما استخرجته من كتب (أبو قراط) و (جالينوس) و (أرماسوس) و من دونهم من قدماء فلاسفة الأطباء و من بعدهم

من المحدثين في أحكام الطب مثل (بولس و أهرون) ([3]) » ، وهذا ما يدل على الحرص الكبير الذي كان يتميز به المسلمون في نسبة العلوم لأصحابها، وهذا ما يثبت الروح العلمية التي كانت لديهم مع العلم أنهم هم الأوائل الذين بادروا في ترجمتها من اليونانية إلي العربية، زد على ذلك أنهم حاولوا صياغتها على المنهج الديني الإسلامي ومحافظتهم على الطابع الإسلامي في هذه الدراسات متقيدين بالمنهج العلمي، وهذا ما زاد من رغبة العالم الإسلامي اليوم للعودة لعلوم الأوائل نظرا لما تستوحيه من موثوقية وتعتبر علوم أصيلة لأصحابها وهي اليوم بدورها تقدم فاعلية وراهنيه للبحث العلمي والطبي على وجه الخصوص .

فقد عمل الفلاسفة الإسلام دائما على التوفيق بين الوافد اليوناني والرافض الإسلامي، واستفادوا من طب الرومان الذين برزوا في العمليات القيصرية التي شهد لها التاريخ، وهي مازالت مستمرة لحد الساعة .

المستوى الثاني : الجانب الديني

تعددت مجالات اهتمام الدين الإسلامي بجميع مناحي الحياة وهذا ما يدل عليه الطب النبوي لمدى اهتمامه بالمجال الطبي، إذ أن العلماء والحكماء المسلمين أولوا اهتماما كبيرا بالإنسان، لجعله يهتم بجميع حقوقه و على رأسها الكرامة والحرية، إذ ان هذا الإرث الكبير يظهر مدى المقاربة الإسلامية الطبية ومدى تمسكها بالمحافظة على حياة الأفراد ،كونه عز وجل كرم بني آدم وجعلهم في أعلى مراتب عن سائر المخلوقات، ومن بين الاهتمامات التي أولاها سيد الخلق هي المحافظة على الكيان الإنساني من جميع النواحي التي تحيط به، كونه العنصر الأساسي لسير هذه الحياة، ولذلك اهتموا بالمعالجات الطبية واستعملوا العديد من الوصفات الطبية من أعشاب ولصقات وعجائن وحجامة، كل هذه كان أغلبها يستمد من الطب النبوي

[3] راغب أصفهاني ،قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية ،ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ،2009،ص36.

الذي ورثناه عن قدوتنا رسول الله وأتباعه [4] والذي كان سائدا في ذلك العصر على غرار طب اليونان والسريان وغيرهم .

وقد كان الهدف من هذا الطب أنه يثبت لنا مناحي القيمة الربانية والأولوية الدينية التي اختص به الدين الإسلامي الجانب الطبي، وهذا ما نجده في الحديث النبوي العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان ([5])، فعلم الأبدان هو العلم الذي يختص بجسم الإنسان الطب، وكان أيضا بدوره الطب النبوي يوافق الرؤية الدينية مع العلمية المتمثلة في الطب، وهذا ما ينفي أن المسلمين الأوائل لم يكونوا أهل علم أو ليس لهم إسهامات طبية .

أقر الطب النبوي المسلمة الدينية والفلسفية القائلة بأن صحة المعارف لا يؤكدها سوي الوحي المنزل على محمد رسول الله، وهكذا فكلمة الفصل في الطب هي للوحي النبوي وليس لجالينوس أو ابقراط، فإن ظهور مثل هذا الطب يبين الاهتمام والمحافظة على المعرفة الطبية على المستوي الذي كان سائدا في زمن الصحابة، إذن ظهور هذا النوع من الطب لا يخفي أعمال سابقيه ولا تابعيه بقدر ما يشهد على وجود نمط من التفكير الطبي الذي كان سائدا في حقبة ما، فقد عرف عن رسول الله في شأن تلقيح النخل قال أنتم أعلم بأمور دنياكم [6]، ولكن المسلمين لم يبقوا متمسكين بالطب النبوي فقط بل حاولوا أن يوسعوا من دائرة فكرهم خاصة في المجال الطبي حيث كانت لهم إسهامات عديدة في الطبابة والجراحة والتشريح وصناعة العقاقير والأدوية المناسبة للمرضى وغيرها من الصناعات الطبية، وعلى الرغم من جميع هذه الإسهامات إلا أنها كانت في بعض الأحيان تقابل بالرفض من جانبها التطبيقي حيث نجد أن فقهاء المسلمين رفضوا وحظروا بعض الممارسات الطبية العملية، مثل العمليات القيصرية بعد موت الأم ([7])، وهذا ما

---

[4] محمد عبد الرحيم، الطب في الشعر العربي، ط1، دار الراتب الجامعية، 1999، ص8.

[5] رحاب نصر عكاري، ط1، ج2، دار الفكر العربي، بيروت، 1993، ص11.

[6] رشدي راشد، موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج3، ط2، بيروت، 2005، ص ص 1182، 1184.

[7] رشدي راشد، المرجع السابق ،ص1206.

يدل على وجود بعض الحالات لتي استدعت شق بطن الأم من أجل إخراج جنينها، فالظروف التي كان يعيش فيها العلماء المسلمين كانت تحظر العديد من التطبيقات وتقف أمامهم للعديد من الاعتبارات منها قدسية الحياة، وهذا ما أدى إلي تراجع الزخم الفكري الذي كانت تزخر به الأمة الإسلامية في تلك العصور، واستغلال كل ذلك العلم من طرف الأوروبيين في العصور الوسطى التي كانت تشهد ظلاما وجمودا فكريا .

ورغم كل تلك الظروف السائدة في العالم الإسلامي إلا أن إصرار العلماء المسلمين على مواصلة أعمالهم التي تمثلت في موسوعاتهم الطبية ونظرياتهم في جميع الميادين مثل ابن الهيثم في البصريات، وجابر بن حيان في التخذير وغيرها، فجل محاولاتهم كانت من أجل أن يضيفوا للثرات الإسلامي جملة من الحلول وتشخيص العديد من الأمراض، فقد برعوا في ذلك وهذا ما يتمثل في العديد من كتاباتهم من بينها الإرث الزخم الذي جاد به الشيخ الرئيس ابن سيناء والمتمثل في كتاب القانون والشفاء والعديد من الرسائل، فما هي مسيرة الرجل، وما هي إسهاماته في المجال الطبي على غرار المجالات التي برع فيها الرجل .

الشيخ الرئيس وأهم انجازاته في الطب (380-428هـ) (910-1037م)

يلقب ابن سينا بشيخ الفلاسفة ورئيس الأطباء حيث كان يتميز بأبحاثه الطبية بكل جدارة، هو أبو علي الحسين بن عبد الله فيلسوف وطبيب إسلامي ولد في آفشته في قري بخاري، وهو من عباقرة المسلمين برع في الطب والفلسفة والطبيعيات، ويعتبر منظم الفلسفة والعلم في الإسلام يعد المعلم الثالث للإنسانية بعد أرسطو والفارابي ولقب بالشيخ الرئيس كتبه كثيرة ومتنوعة وتمتاز بالوضوح والإيجاز ،له كتاب الشفاء و كتاب القانون في الطب ،وإضافة إلى موسوعة طبية تحتوي على ما ذكره الأطباء اليونان الأقدمون بالإضافة إلي ماساهم بيه العرب في

هذا المجال، وترجم هذا الكتاب إلي اللاتينية في القرن الثاني عشر، وأعيد طبع الترجمة ست عشرة مرة ([8])، نظرا لما يكتسبه من أهمية في مجال الطب .

وكان من اهتماماته في العلوم هو علم الطب حيث كان دائما عندما يتحدث عن تحصيله لعلم الطب لتلاميذه يقول (... ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ المصنفة فيه، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليً علم الطب، ومهدت للمرضي فانفتح علي من أبواب المعالجة المقتبسة من التجربة مالا يوصف وأنا مع ذلك أختلف إلي الفقه وأناظر فيه، وأنا في هذا الوقت من أبناء ستة عشر ..) ([9])، وهذه دلالة قطعية على انجازاته في الطب ومحاولاته الجدية التي كانت تعتبر بمثابة الإسهامات الكبيرة للرجل في وقته وهذا ما يتضح لنا من خلال مؤلفيه الكبيرين القانون والشفاء، ضف إلي ذلك استسهاله لهذا العلم عن العلوم الأخرى حيث يري عنه أنه وهو في سن مبكرة قام بالعديد من الإنجازات من بينها معالجته لأمير بخاري وعمره لا يتجاوز السابعة عشرة .

وقد تجلت إسهاماته في العديد من المعالجات لتلك الأمراض التي كانت سائدة في عصره، من خلال إنجازاته في تحضير الأدوية والإرشاد إلى طرق استعمالها، ودرس أحوال العقم وتحدث عن أسبابه وأيضا السل الرئوي والأمراض التناسلية، ، أيضا لجأ إلي التطبيب بالتحليل النفسي وشرح أعراض مرض المانخوليا الذي أرجعه بعض الأطباء إلي الجن يقول في هذا الصدد (... نحن لا نبالي من حيث نتعلم الطب آن ذلك يقع عن الجن أو لا يقع بعد أن نقول إنه إن كان يقع من الجن فيع بأن يحيل المزاج إلي السوداء، فيكون سببه القريب السوداء، ثم ليكن سبب تلك السوداء جنا أو غير جن ...) [(10)].

---

[8] باقر أمين الورد ،معجم العلماء العرب والمسلمين، مرا:كوركيس عودا ،ط1، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1987، ص55.

[9] عباس محمود العقاد، الشيخ الرئيس ابن سيناء، ط3، دار المعارف، د ب، دس، ص117 .

[10] عباس محمود العقاد، المرجع السابق، ص 121.

ومن الجدير أن نذكر أن كتابه في الطب "القانون " هو من أهم المؤلفات العربية في هذا الاختصاص، وذلك نظرا لما يحويه من نظريات وحقائق عجز الكثيرون من العلماء عن التوصل إليها، فقد اعتبر العديد من العلماء أن هذا الكتاب هو المنهج الوحيد لدراسة الطب في عصر القرون الوسطى والنهضة، علما أنه درس كمرجع عام للأطباء، وأساسا للمباحث الطبية الأكاديمية في الجامعات الفرنسية والإيطالية، ومن ميزات هذا الكتاب أنه ولأول مرة في تاريخ الطب تم تقسيم فصول الكتاب إلى رأسية وصدرية وباطنية وعصبية وتناسلية وغيرها، وهذا ما يميز تصنيفه هذا عن الأطباء الذين سبقوه أمثال أبقراط وجالينوس التي كانت كتاباتهم مجرد شذرات ومقالات لا ترقى لما قدمه الشيخ الرئيس، فتصنيفه هذا للجسم البشري كان الأول من نوعه، إضافة إلي التزامه طيلة كتابه من شرح وتعبير لكل قسم من الأمراض من تذكير بأسبابه مرورا بنشأته وصولا إلى تقديم الحلول التي يمكن من خلالها أن يتم تجاوزه ، وهذا ما جعل العديد من القراء يعتبرون أن كتابه يعد حديثا ويتماشي حتى مع العصر الراهن نظرا لما يحويه من تقنيات ([11]).

فيعتبر كتاب القانون في الطب من أشمل وأوسع الكتب التي بحثت في المواضيع الطبية في العصر الإسلامي، وقد قام في كتابه هذا بالتفريق بين الالتهاب الحاد الفاصل بين الرئتين وبين ذات الجنب، وأشار إلي عدوى السل الرئوي، وذكر كيفية انتشار الأمراض المعدية عن طريق المياه والتراب، وتعرض للأمراض الجلدية بدقة عالية في الوصف، كما أنه تعرض للأمراض الجنسية، وعرف الدورة المستديرة، والتهاب السحايا والالتهابات المختلفة في الصدر وخراج الكبد ووصف اليرقان وصفا وافيا ودقيقا، وكذلك تعرض لموت الفجأة والسكتة الدماغية، وذكر العقاقير التي تنشط القلب، وتحدث عن الآلام العصبية ومرض العشق، وغير ذلك من الآلام والأمراض التي تصيب الجنس البشري ([12]).

---

[11] محمد رضا الحكيمي ،ابن سيناء ،مؤسسة لأعلي للمطبوعات، بيروت، 1991. ص ص 129،131

[12] مصطفي غالب، ابن سينا، منشورات دار ومكتبة لهلال، لبنان، 1998، ص64.

وقد ركز في العلاج على أهمية اهتمام المريض بالتغذية الصحية والمنومات التي لا ضرر فيها مع مراعاة العوامل النفسية، فقد كان منهجه في الطب والعلاج يستند أيضا على جانب من الحيلة، لكون بعض الأمراض يمكن أن تكون في دائرة العشق ولا وجود لعضو عليل فيها، وهذا ما استدعي منه أن يكون فطنا إزاء مثل هذه الأوهام، وهذا لا يخفي لنا أنه باشر الطب على أنه علم طبيعي بعيد عن الأوهام والخرافات .

وبذلك كان يستلزم عليه أن يستعين بالفطنة، وأن لا ينسي مداخل النفس في تصحيح الأجسام حيث يقول الأستاذ كمستون **CUMSTON** في كتابه تاريخ الطب في عهد الفراعنة إلي القرن الثاني عشر" ما على الإنسان إلا أن يقرأ جالينوس، ثم ينتقل منه إلي ابن سيناء ليري الفارق بينهما، فالأول غامض، والثاني واضح كل الوضوح، والتنسيق والمنهج المنتظم سائدان في كتابات ابن سيناء ونحن نبحث عنهما عبثا في كتاب جالينوس" ([13])، فهذه دلالة صريحة لدرجة المعرفة التي قدمها الرجل في الطب، وجدية البحوث التي قام بها والذي طالما سعى لتأسيس مجال طبي خاص به .

ويجب الإشارة أنه أول من اكتشف في العالم الحقن بالإبر تحت الجلد لغرض العلاج، من الأمراض وأيضا أول من استخدم التخدير [14] لإجراء العمليات الجراحية وهذان الاكتشافان المهمان في تاريخ الطب الإسلامي مازالا لحد الساعة معمولاً بهما في جل العمليات الطبية الحديثة، فهذا الفضل يرجع للشيخ الرئيس .

ومن أعماله أيضا لدينا الأرجوزة في الطب الجامعة لأصول الطب الإسلامي من آيات مقفاة وسهلة الحفظ، وعددا كبيرا من الرسائل بالغربية والفارسية ([15])على السواء، إذن يمكننا أن نقول أن الرجل كان دائما يسعى لإقامة صرح

---

[13] عباس محمود العقاد، المرجع السابق، ص124 .

[14] محمد رضا الحكيمي، مرجع سابق، ص137

[15] حسين نصر، ثلاث حكماء مسلمين، تر: صلاح الصاوي، مرا:ماجد فخري،ط2،دار النهضة للنشر، بيروت، 1986، ص 37.

خاص به في مجال الطب، حيث أنه وحدا الأصول الأبقراطية والجالينوسية، وهذا ما ساعده كثيرا في تقبل المسلمين لمثل هذه الأفكار الجديدة، ومحاولاتهم في نقلها، وجمعها عن سابقيهم مع المحافظة على النصوص القديمة التي ساهمت في بناء أفكارهم، واعتبار علوم سابقيهم مرجعيات يستندون لها في الحاجة، إضافة إلي تطويرهم لهذا العلم من خلال تلك المرجعيات وهذا ما فتح الباب لديهم في معرفة العديد من التقنيات التي لم تكن معروفة لدي من سبقوهم "آباء الطب القديم " فقد طوروا في العلوم الطبية بجميع مجالاتها مثل الجراحة والتشريح، فما هي الغاية من علم التشريح لدى المسلمين، وابن سينا على وجه الخصوص؟ وما هي الأعضاء التي قام بتشريحها الشيخ الرئيس؟

كرونولوجيا علم التشريح :

كانت بدايات علم التشريح منذ القديم إلا أنها لم تكن مدونة بل كانت مجرد معارف بأشكال الأعضاء وهيآتها، وقد حصلوا هذا العلم من خلال تشريحهم لبعض الحيوانات التي لها نفس التركيبة البشرية، وبالرجوع إلي البدايات الأولى لهذا العلم نجد أنها بدأت مع المدرسة الإسكندرية المشهورة، التي أنشأها بطليموس الأول الذي تولي مصر بعد الاسكندر الكبير، فقد أمرت الحكومة في ذلك الوقت بدفع جثث القتلى من جراء أعمالهم إلي المدرسة الطبية لهدف تشريحها والاستفادة منها في المجال الطبي العلمي، أما القدماء المصريون كانت غاياتهم في ذلك صريحة وهي من أجل إتقان صناعة وتحنيط أجساد موتاهم، ثم جاء بعدهم اليونان فاعتنوا بذلك أيضا لكونهم كانوا يقدسون الحياة الإنسانية، كما كانوا يقدسون الأعضاء البشرية لذلك اعتبرت مساهماتهم كبيرة في هذا المجال، حيث

يعتبر أرسطوطاليس أول من شرح الحيوانات الحية وكتب بعض التعاريف فن التشريح التي أخذها من بعض الحيوانات التي تشبه الإنسان .([16]) .

فكلمة تشريح هي ترجمة حرفية يونانية ومعناه في الأصل تقطيع الشيء إلي أجزاء، إذ هو في معناه يتضمن الفتح والشرح والوصول بالعضو المشرح إلي المعرفة الجزئية والكلية لهذا العضو وهذا هو غرضه الأساسي، حيث من خلاله نعنى بدراسة الجسم، وتموضع أعضائه وأجهزته وأنسجته ومختلف تراكيبه، وهذا يكون عن طريق تقطيع الجسم إلي أعضاء منفصلة .([17])، ضف إلي أن علم التشريح يبحث عن الأجزاء التي تتألف منها الأجسام الآلية بالنسبة للأعضاء المجاورة لها، ولذلك يقسم التشريح إلي عملي وهو صناعة التشريح ونظري هو علم التشريح، إذا علم التشريح هو العلم الذي يهتم بدراسة جسم الإنسان وكذلك الأعضاء والأجهزة التي تكونه، حيث يختص بوصف الجسم البشري في مجمله وكذلك أجهزته ونواحيه وأعضائه مثل وصف العظام والعضلات .... وغيرها، وكما يدرس علم التشريح العلاقة بين مختلف هذه الأجهزة والأعضاء والتأثير المتبادل بينهما .

أما بالنسبة للعلماء المسلمين فقد برعوا في علم التشريح لدرجة كبيرة من طرف العديد من الأطباء اللذين حولوا مشاهداتهم إلي تجارب تطبيقية، رغم تصدي رجال الدين لمثل هذه الإنجازات لاعتبارها تمس بقدسية الإنسان وتحد من كرامته وحريته وهذا مخالف لتعاليم الدين الإسلامي، إلا أن المسلمين لم يقفوا عند هذا الحد بل واصلوا مسيرتهم فنجد على سبيل المثال الفيلسوف والطبيب ابن رشد يقول " من أشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله " . [(18)] وهذه دعوة من الفلاسفة والأطباء للتمسك بهذا العلم لكونه يبين العديد من الخبايا في جسم الإنسان، وأيضا من بين الأطباء المسلمين اللذين نشهد لهم بمساهماتهم في هذا المجال

---

[16] يوحنا ورتبات، كتاب التوضيح في أصول التشريح، بيروت، 1781، ص ص 15،17.

[17] يوحنا ورتبات، المرجع السابق، ص 14.

[18] رشدي راشد، مرجع سابق، ص1217.

هو الشيخ الرئيس من خلال التفصيلات لتي أوردها في كتابه القانون في الطب حيث يعتبر مرجعا هاما في العلوم الطبية، وخاصة علم التشريح الذي قدم فيه الكثير من المعارف التي لازالت ليومنا هذا ينتفع منها، وجاء بعده ابن النفيس في كتابه تشريح القانون لابن سيناء حيث أدرج فيه جل الأعضاء البشرية للجسم الإنساني التي قام بدراستها من خلال ابن سيناء، حيث شرح ما تقدم به الشيخ الرئيس من تفصيلات للعضو البشري في صور الأعضاء الباطنية وتشريح الأعضاء الآلية وغيرها من الأمور، فما غاية ابن سيناء من خلال تشريحه غاية ابن سيناء من التشريح: ([19])

تقدم العلماء المسلمون في هذا العلم ومن بينهم ابن سيناء حيث اعتبر أن علم لتشريح جزء منه يعود للعلم والآخر إلي العمل، والبعض المتبقي إلى الاستدلال .

أولا : انتفاعه في العلم والنظر وذلك يرجع إلي توفيقه ومواصلته لمعرفة جسم الإنسان، بهذا يسهل للباحث أو الطبيب في البحث عن أحواله وعوارضه

ثانيا : أما الانتفاع به في العمل فهذا يرجع لدافع قوي هو معرفة الأعضاء التي يتكون منها الجسم البشري، ومن خلال هذا يتمكن من تشخيص الحالات ويوفق في وضع الضمادات في مكانها، علاوة على ذلك يسهل عليه التعرض لنفوذ وقوام الأعضاء المتضررة

ثالثا : أن يتعرف على مبادئ شعب الأعضاء ونحوها، ومواضع كل تلك الأعضاء وهكذا يتمكن من خلال هذه الدراية أن يجد البديل إما بخلعه أو نحو ذلك

رابعا : أنه يعرف كل ما يربط العضو بالعضو الآخر، وهكذا يتفادى عند التشريح قطع شرايين أو عصب ونحو ذلك من الصعوبات التي يمكن أن تعتريه

وأما بالنسبة لاستفادة الطبيب من التشريح في الاستدلال فذلك حتما يكون لأجل سابق النظر وقد يكون لغير ذلك، مثل أن يحتاج الطبيب استئصال عضو

[19] سلمان قطابة، تشريح القانون ابن سيناء لابن النفيس، فرنسا، 1981، ص ص 5 ،7 .

فإنه مرغم أن يكون عالما في التشريح، لأنه بدون هذا العلم لا يستطيع أن يقوم بهذه العملية .

وبالنسبة لتلك الأمراض التي تصيب الأعضاء الباطنية، فإن الطبيب هنا ينتفع بذلك الاستدلال الذي يعني بجواهر الأعضاء أو من بعض الأعراض التي تنتج عنه أو يمكن أن ينتج من خلالها الاثنان، إذن فإن اعتماد ابن سينا على الاستدلال في بعض الأمور لتوصيل المعرفة العلمية لجسم الإنسان كان دائم الاستعمال في تقنياته الطبية

فالشيخ الرئيس قدم فصلا في التشريح من عظام ومفاصل وعضلات فقد دقق فيها عظما عظما، وكما تحدث عن كل مفصل وعضلة من عضلات الجسم، كما أورد في كتابه القانون في الطب عن تشريح الأعصاب وجعل ذلك في ستة فصول، وتعرض إلي التشريح العصب الدماغي ومسالكه وأيضا عصب نخاع العنق وعصب فقار الصدر، وعصب فقار القطن، وتشريح العصب العجزي وكل هذا كان بدقة كبيرة، لا يخالف ما هو مقدم اليوم في الأكاديميات الطبية والكليات والجامعات، فلم يترك الرجل عضوا من الجسم إلا و فصله تفصيلا دقيقا بتقديمه لجميع مسالكه والأعضاء المحيطة به، وهذا ما جعل من قدرة الشيخ الرئيس أن يشخص ويقدم الدواء الفعال لكل مرض، فما قدمه ابن سينا في التشريح يشكل زخماً فكرياً كبيراً ،ويعتبر مفخرة للعالم الإسلامي ومرجعا أساسيا، فرغم نقص الآلات إلا أن الرجل برع وبشكل خاص يميزه عن غيره، فما هي رهانات هذا العلم في العصر الحاضر ؟وهل يلغي التشريح إيطيقا حرية الأفراد أو كرامتهم ؟

إسقاطات علم التشريح على الجانبين التطبيقي والإيطيقي

البعد التطبيقي للتشريح :

وبعد أن صوبنا النظر لعملية التشريح التي كانت تمارس ولازالت لحد الساعة لكن بأشكال أخري لكون عملية التشريح كانت هي البداية الفعلية للطب وتقنياته التي تتطور يوما بعد يوم، مع العلم أن الممارسات التشريحية وبأشكالها المختلفة هي

التي تطرح العديد من المعيقات في الفكر الراهن، خصوصا على الجانب التطبيقي للإنسان، فالتطبيقات للعملية لتشريح الطبي ومختلف قضاياه سواء زراعة الأعضاء البشرية أو نقلها من شخص لآخر، وكذلك تقنيات التحكم في الإنجاب تبقي مطروحة ومتداولة من زوايا مختلفة فلسفية، الإيطيقية، دينية ،ونحتاج من خلالها إلي حكم الفقهاء وحتى مختلف الأديان الأخرى لها آراء وأيضا نجد الطرح في القانون، فمن الناحية القانونية عندما أصبح الطب يستطيع أن يستنسخ شخصين بنفس البصمات هذا ما يفتح جدلاً كبيراً، وضف إلى ذلك موقف علماء النفس وعلماء الإجتماع، وموقف الفلاسفة تبناه علماء تفلسفوا لأن الأزمات التي وقعوا فيها أدخلتهم في ميدان الفلسفة التطبيقية، فلم يعد البحث هدفه تطوير الطب أوالتشريح، وإنما أخذ صبغة ابستيمولوجيا تدرس نتائج تشريح وتقدم الطب وهذا طرح ابستيمي ارتبط بمستوي ايطيقي خالص، فيما يتمثل الجدل الإبستيمي بين تطور الطب، والهندسة الإنسانية وإسقاطه على جدل ايطيقا ونتائج البحث ؟

البعد الإيطيقي لتشريح :

الحديث عن علم التشريح هو بالضرورة العودة إلي أصوله، وهذا ما حاولنا العمل عليه، إلا أن لكل علم نتائج ومميزات عن العلوم الأخرى، ولكن ما لاحظناه من خلال ما تقدم أن أصل العلوم البحتة اليوم في المجال الطبي كالهندسة الوراثية والعمليات القيصرية، وتقنيات الإنجاب وغيرها، يعود أصلها لعلم التشريح الذي حدد معالم بعض التجارب الطبية في الراهن، وبدوره حاول أن يجعل الإنسان هو محور العملية الطبية، ولكن هذا الإنسان طرح العديد من التساؤلات من خلال الممارسات التي تقع على عاتقه فإذا رجعنا إلى تلك الحقبة من الجانب الفكري نجد أن أعمال فلاسفة الإسلام كان يتخللها جانب إيطيقي في أعمالهم، ومن بينهم الشيخ الرئيس وهذا ما يتجلى في أعماله حيث كان يدعو دعوة صريحة لضرورة اهتمام الطبيب بالمرضي ومعاملتهم بطيبة والحذر، وإذا أسقطناه

على الايتقيا الطبية المعاصرة نجد أن من مبادئها وجوب الاهتمام بالمريض والتكفل به ورعايته، وهذا متضمن في تعاليم ديننا الإسلامي، فهذه العلاقة بين الطبيب والمريض كانت ولازالت لحد الساعة، لكون المحافظة على كرامة الإنسان ضرورية ومهمة في الحياة الإنسانية وهذا ما يبرز الدور الإ يتيقي اليوم، ومن خلال تفعيل هذا المبدأ يكون للمريض حرية.

فغاية ابن سيناء من خلال علم التشريح الذي تقدم فيه كثيرا، هو محاولاته لمساعدة الإنسان لمواصلة حياته على أحسن الظروف، وذلك من خلال استئصال العضو المريض أو وصف أدوية أو ما شابه ذلك للحد من انتشار المرض في جميع الجسم، وهذا أيضا يعتبر جانباً إيتيقياً حاول من خلاله أن يبرز، وبالتالي فأخلاقيات الطب أثرت في على الفلسفة الأخلاقية بحيث كانت نقطة التحوّل من الأخلاق النظرية الكلاسيكية إلي الأخلاق العملية التي هي تدرس وتعايش مختلف المستجدات البيولوجية والبيئية والسياسية والاجتماعية.

فالهدف لا يخرج عن الطرح الخير الأخلاقي لأن مختلف التحولات تمس بكرامة الإنسان وطبعه البيولوجي والفيزيولوجي والبسيكولوجي، ولذلك الاهتمام المعاصر بالفلسفة بعد الوجود الذي برز في فرنسا وألمانيا مع فلاسفة تيار الوجودي ثم الاهتمام المعرفي مع الوضعية المنطقية فلسفة التحليل يظهر في الأفق انشغال فلسفي آخر، هو البعد الاكسيولوجي القيمي وتصبح فلسفة القيم قبلة لكل الدراسات، حيث أصبح يتفلسف الطبيب ورجل القانون وعالم الاجتماع ويلتقي معهم رجل الدين، لكن الطرح التطبيقي للأخلاق ومرجعياته الأولي هو التصور الكلاسيكي للأخلاق، والبحث عن الذي هو مناسب وإنسانيته على حد سواء، أما الأخلاق الطبية التي تحدثنا عنها قديما في الفلسفة الأخلاقية الكلاسيكية فكانت مرتبط بالشخص، وأخلاق المهنة واحترام الآخر مازال المبدأ موجودا في القيم المعاصرة، حيث أصبحت مرتبطة بنتائج الطب وبالأدوية والهندسة البشرية،

وإشكالية الوجود لتفتح الأفق أمام تفلسف العلماء والأطباء، فأصبح لكل علم فلسفته بدل من الطرح الكلاسيكي فلسفة واحدة لجميع العلوم .

لقد حاولنا من خلال ما تقدمنا به أن نلقي نظرة على علوم سابقينا من الجانب الطبي الإسلامي، وذلك متمثل من خلال مساهماتهم الفاعلة في تاريخ الفكر البشري، ويعتبر الشيخ الرئيس أحد أعلام هذا الفكر نظرا لما قدمه في الطب وهذا ما يتضح من خلال كتابه الأسطورة القانون في الطب، وأيضا بالنسبة لعلم التشريح الذي عرف مجالا واسعا معه من خلاله تطبيقاته وتفصيلاته لكل عضو بشري، ولا يخفي علينا أيضا مساهماته الفاعلة لتوصله للعديد من الحلول للأمراض التي كانت متفشيّة في ذلك الوقت، فبراعته في الطب جعلت الجامعات الأوروبية تلجأ إليه في العديد من النظريات، وتستعين بكتابه في أكثر من موضع وهذا ما تؤكّده الترجمات الكثيرة والطبعات العديد لهذا الكتاب، ومن الجانب التطبيقي نجد أنه حاول بقدر الإمكان أن يشرح العضو بغية تدقيق النظر فيه والمضي به، وهذا ما أسقطناه على الجانب الإ يتيقي للأخلاق المعاصرة، فهما حاولنا الإلمام بفكر الشيخ الرئيس فنحن على دراية تامة بأننا لن نوفيه حقه وهذا يعود لحجم فكره الذي يعتبر موسوعياً.